في عصر ترتكز فيه معظم أنشطة الإنسان الاجتماعية والشخصية والاقتصادية والتجارية والسياسية على مدى ما يتمتّع به من قدرات وملكات اتصالية بالآخرين، يمكن لنا أن نسمي هذا العصر عصر الإنسان الاتصالي بكل ما تحمله اللفظة من دلالات. ولكن على الرغم من أهمية ومركزية الاتصال كظاهرة أساسية في حياة البشر، إلا أن الكثيرين منا لا يولون هذا الجانب ما يستحقه من الاهتمام الأمثل. ومن الطبيعي أن تجد الكثيرين منا ينظرون للاتصال باعتباره مُسلَّمة لا تحتاج لكثير من التساؤل والجدية. بل إنه على الرغم من أننا ككائنات اتصالية مقبلون على القرن الحادي والعشرين من الحضارة الإنسانية، إلا أن معظمنا لا ينفك يأخذ الاتصال على عواهنه دونما أدنى محاولة لاستيضاح طبيعته ومعوقاته، ومعرفة أفضل الطرائق للتعامل معه.

وقد لا أتفق مع الكثير من الباحثين الذين يسلّمون بأن عصرنا هو عصر الاتصالات، وذلك بسبب أن الاتصال ظاهرة إنسانية اجتماعية كانت ولا تزال ذات حضور في تَكُّون وتحلُّل المجتمعات البشرية، وليست قاصرة على مجتمع أو عصر دون آخر. ولكن وبشيء من التحفُّظ يمكننا أن نقول بعصر انيتنا الاتصالية فقط على أساس الأدوات التكنولوجية، والآليات التقنية المتعاظمة والمتاحة لنا اتصالياً. ومرجع هذا التحفظ على مقولة اتصالية عصرنا دون غيره من عصور الإنسانية، يعود بالدرجة الأولى إلى أن الاتصال كعملية ذات متغيرات وعناصر محددة ظلت ولا تزال تحمل في ثناياها نفس البُنية التحتية اللازمة لأي موقف اتصالي.

فالمصدر الاتصالي والمتلقي والرسالة والوسيلة والأثر والتغذية الراجعة تعد

مرتكزات تأسيسية في العملية الاتصالية، ولا يمكن تصور دينامية هذه العملية في ظل غياب أو تهميش عنصر من العناصر السابقة.

ولذلك نجد أن كل ما حدث في عصرنا لا يعدو كونه تمديداً وتوسّيعاً لقدرات الإنسان الاتصالية ليس إلا. فالثورة الصناعية وما أعقبها من منجزات في مجال الاتصالات والمواصلات ساهمت الى حد كبير في تقليص الفروق الزمكانية بين الكيانات البشرية.

والعالم من حولنا يخطو خطواته الأولى على عتبات ما يُعرف بمجتمعات المعلومات **Information societies** ، تبقى الحاجة ماسّة في عالم الإنسان المعاصر لأدوار ومهارات إتصالية فاعلة ، وقادرة على الوفاء باحتياجات الواقع الإنساني الآخذ في التعقيد في كافة ملامحه الاجتماعية والفكرية والسياسية والاقتصادية. اليوم لم يعد الاتصال كظاهرة إنسانية وتقانية مجرد مظهر أو شكلانية تحتمي من خلفها تفاعلاتنا الفردية والمؤسسية، أو مجرد ترف معيشي وُلد بظروف حياة اليوم وطفراتها المتلاحقة، وإنما احتياج فعلي شكلته التحولات التي واكبت وعي الإنسان المعاصر وأدواره المتنامية في العديد من جوانب التفاعل الإنساني.

منذ الأزل والإنسان يتعامل مع الاتصال بوصفه مُسلّمة لا غنى عنها في تواصله مع الآخرين ومع بيئته الاجتماعية، ومنذ قرون عدة والإنسان يسعى جاهداً لتطوير مهاراته وأدواته التواصلية وصولاً لعالم من الفهم المتبادل والواقع المُحرّر من الأزمات والمعوقات التي تنشأ بحكم وجود الإنسان الاجتماعي. صحيح أن القرن العشرين اكتسب صفة العصر الاتصالي لأسباب التطور الثقافي والعرفي التي دفعت بالحضارة الإنسانية إلى مراحل متقدمة جدا في عملية الاتصال ونتائجه، إلا أن الجُهد البشري لصناعة كل هذا الثراء الاتصالي لم يتوقف للحظة من الزمن عبر تعاقب الأجيال على هذا الكوكب.

إن الاتصال ظل منذ الأزل وفي محل مستوياته سواء الفردية أو الجماعية أو الوسائلية مجرد عملية اجتماعية تحمل في ثناياها متغيرات وعناصر من المتعذر لها أن تخرج أو تحيد عنها، ظل واقع العملية الاتصالية هذا ومنذ محاولات الاتصال الأولى وحتى عصرنا الراهن، تستند في جُلْ تشكلاتها على متغيرات صانع الرسالة (المصدر **source**) ومتلقي الرسالة **Recipiant** (الجمهور) والرسالة **Massage** والوسيلة **Medium** والأثر **effect** ورجع الصدى (التغذية الراجعة **Feed back**).

فالقدرات الاتصالية لدى الإنسان تعاظمت وبشكل غير محدود سواء أكان مصدراً اتصالياً أو مُتلقياً بعيداً. فالوسيلة الاتصالية أصبحت جماهيرية وليست تفرُّدية، وهذا ما دلف بالرسالة والمرسل إلى عالم غير محدود من الذيوع والشيوع والانتشار بين أعداد كبيرة من الجماهير وفي كل مكان وزمان، فجماهيرية الوسيلة ليست إلا جماهيرية الرسالة إن شئتم.

وهذا ما يدعونا للإقرار بأن هذه الثورة الوسائلية المطبوعة والمرئية والمسموعة، قد أفرزت طقوساً اتصالية مُستحدثة لم يعهدها الإنسان من قبل. فالتغير في بُنى المؤسسات والمجتمعات أصبح أكثر بروزاً أو تسارعًا من السابق. فالثورة الاتصالية جلبت معها ـ مؤسسات اجتماعية لم تكن معروفة في السابق، فالراديو والتلفزيون كوسائل جماهيرية أصبحت جزءاً من حياة الإنسان المعاصر، وأصبحت من خلال طقوسها وجبروتها التكنولوجي مؤسسات اجتماعية تمارس أدواراً مماثلة لما تقوم به المؤسسات التربوية والسياسية والتشريعية في المجتمع المعاصر. بل إنه من المنطقي القول بأن هذه المؤسسات الاجتماعية الحديثة (الصحافة ـ الإذاعة المرئية والمسموعة) أصبحت أكثر فاعلية من المؤسسات الأخرى وأكثر قبولاً وحضوراً لدى العقلية الجماهيرية

وآياً كانت الأحوال ، فإنه ليس من المستغرب أن تصبح هذه العقلية الجماهيرية عقلية قبلية متوحدة كما يقول الباحث اللغوي الكندي مارشال ماكلوهن، في وصفه لهذا العصر. فالمعايشة الراهنة والآنية للأحداث والوقائع الكونية من قِبَل الجماهير في كوكبنا هي أشبه ما تكون بعقلية لا محدودة تُعايش حسياً ومعنوياً كل ما يحدث من حولها. فالتمدُّد في العين والأذن البشرية من خلال وسائط الاتصال المعاصرة ساهم في توحد إنسان العصر وانصهاره في الحدث الإنساني زمكانياً، وولّد مواطنًا كونياً ينتمي إلى من يماثلونه في كل مكان وزمان ولا يمكن بأي حال من الأحوال الخروج عن نسق هذا الانتماء البشري، فالعزلة أو مقاطعة الاتصال أصبحت غير واردة بكل المقاييس بين أبناء كوكبنا هذا.

وفي هذا المشروع المقتضب نحاول تهيئة القارئ وربما للمرة الأولى للتعرُّف إلى سياق معرفي متنافر، وذلك من خلال القراءة الشمولية والانتقالية وفي الوقت نفسه لمعظم أدبيات حقل الاتصال. وقد يشفع لنا إقحام القارئ في سياق مشتَّت كهذا، أننا نرغب في تحقيق صياغة أولية وناضجة لعلم الاتصال في ذهن القارئ أو المتخصص، والمساهمة في تخليق صورة شمولية للعملية الاتصالية وهي تتشكَّل في نطاق الأنماط الاتصالية المختلفة دونما تميز يُذكر.

فعلم الاتصال يقع في كثير من الخلط والتشويه والتفريق المعرفي اللامنطقي سواء من قبل المهتمين أو المتخصصين. فالرجوع إلى الأدبيات المتعلقة بهذا العلم تعطي الباحث إشارة صريحة عن حجم الفروقات التصورُية الهائلة بين المتخصصين في هذا المجال، والتي بدورها دلفت إلى عالم المهتمين والممارسين والقراء العاديين وبرزت معها شروخا في المفاهيم يصعب اقتلاعها أو حتى محاولة تصحيحها على أرض الواقع.

إن محاولة تحاشي الوقوع في هذه المحاذير في مشروع كهذا، توجب علينا، بالضرورة الالتفات إلى التأسيس المعرفي للعملية الاتصالية كبُنية يمكننا معها إنجاز صياغة متكاملة لعلم الاتصال على أرض الواقع الممارس والمتصور. وهذا يعني أيضا عدم الالتفات إلى الجزئيات التي تُعزّز الفروقات والافتراقات بين أنماط الحدث الاتصالي ذاته. ويغدو طريقنا أكثر تهيئة وملائمة لتحقيق هذه الصياغة الشمولية في ذهن القارئ من خلال الاتجاه إلى الخطوط العريضة التي تُشكّل عصب الالتقاء بين هذه الجزئيات المتناثرة والخاصة بأنماط الحدث الاتصالي.

فالفصل الأول، يُعد بمثابة الإطار المعرفي النظري، والذي يُشكل مرجعاً لا يمكن تجاوزه عند المعالجة الذهنية للأنماط الاتصالية الأخرى. فالمحور الرئيسي هنا ينبلج من روح العملية الاتصالية وعناصرها الأساسية والمبادئ الجوهرية في بُنية الحدث الاتصالي. وهذا ما يوجب على القارئ أن يضع نصب عينيه هذا المحور المعرفي وهو يرحل بين أنماط الاتصال المتفاوتة

أما الفصلان الثاني والثالث، فيتناولان النظام الرمزي بشكليه اللفظي وغير اللفظي. وأثر هذا النظام على تفكير وأساليب صياغة الرسالة الاتصالية من قبل المصدر الاتصالي. والدور الفاعل لهذا النظام في إحداث الفهم أو سوء الفهم بين المرسل والمستقبل في الموقف الاتصالي. فاللغة بشقيها اللفظي وغير اللفظي (الجسدي) تُعد نظاماً اجتماعياً فاعلاً في تحقيق فرص الاتصال بين أفراد المجتمع. وتهييءُ لهؤلاء الأفراد مجالا حيوياً لتبادل الخبرات والقيم الثقافية الجوهرية في المجتمع.

وفي الفصل الرابع، ينحصر النقاش حول ما يُسمى بأفعال التفكير والإدراك وطرائق الصياغة الواعية في نطاق الذات البشرية، وهو ما يُعرف بالاتصال الذاتي،

والذي يتمحور حول أنماط الإدراك والعمليات السيكولوجية المشكِّلة لوعي الإنسان في نطاق الذات وعلاقتها بالعام المعاش . ويُعد هذا النمط الاتصالي أصغر الأنماط الاتصالية ، باعتباره ينحصر في بُنية الذات الإنسانية والتي تُعد حجر الزاوية في أي موقف اتصالي .

وفي الفصل الخامس، يتم استعراض عمليات الإدراك والتعبير في سياق ثنائي طرفاه المصدر والمتلقي . وهذا ما يُعرف بالاتصال البينشخصي ـ أي اتصال الأفراد المواجهي . ويتم استعراض نماذج التصوير المعرفية للاتصال البينشخصي أولاً، والممارسة الإجرائية على مستوى علاقات الأفراد بعضهم ببعض ثانياً، وهذا النمط مثلما يتضح من التسمية يُعد أكبر حجماً من سابقه من حيث الأطراف المتفاعلة فيه . وسنلاحظ أنه كلما ابتعدنا عن نطاق الفرد اتسع أمامنا حجم التفاعل والأطراف الفاعلة فيه . وظل مفهوم العملية الاتصالية بمثابة حجر الزاوية الذي نستطيع من خلاله التحكم في فهم النمط الاتصالي مهماً تضاءل أو تعاظم معرفياً .

أما الفصل السادس، فيختص بما يُسمى بالاتصال المواجهي العام، حيث يصبح الاتصال أكثر اتساعاً وتعقدا من سابقيه . ففي هذا النمط الاتصالي نجد أعداداً كبيرة تتفاعل فيما بينها وتتبادل أدوار الترحيل والاستقبال المرسلة بشكل متفاوت، على الرغم من أن الطابع العام لهذا النمط هو اتصال فرد أو وحدة اتصالية بمجموعة متنافرة في الإدراك المعرفي والمشارب . وفي هذا الفصل يتم استعراض تاريخ الاتصال وتشكله كمفهوم منذ الحقبة الإغريقية وحتى عصرنا الحالي . وكذلك فنون الإلقاء الجماهيري وأساليبها . إضافة إلى استعراض مفهوم المناظرات الإعلامية ودورها الاتصالي .

وفي الفصل السابع، نناقش طبيعة اتصال الجماعات الصغرى، أي التفاعل بين أفراد يتروح عددهم بين الثلاثة إلى الاثني عشر. ويهتم هذا الفصل بنوعية اتصال هذه الجماعات والأدوار الاتصالية الخاصة بالأفراد فيها، وأثرها على حياة الجماعة سواء أكانت في نطاق مُستقل أو تابع لتنظيم محدد. ونتيجة للعدد المحدود لأفراد هذه للجماعات، فإن الاتصال فيما بينها يظل اتصال مواجهة (وجهًا لوجه). وهو ما يوفر الجماعة وأفرادها مزية لا تفرُق كثيرا عن الأنماط الاتصالية السابقة من حيث الدينامية والتفاعل بسبب عنصر المواجهة والتي تمكن معظم الأفراد من الاتصال وتبادل الرؤى مباشرة وبعفوية.

وفي الفصل الثامن، يتم مناقشة العملية الاتصالية في نطاق التنظيم الرسمي المعقد، ودور الاتصال ونوعيّته وأثره على حياة التنظيم ونموه. فالاتصال هنا يأخذ طابع الاتساع الذي لايمكن معه تتبّع أسلوب المواجهة سواء مع الرسائل أو مع الشخوص. فالتنظيم يشمل عدداً هائلا من الأفراد والذين يتم الاتصال فيما بينهم عبر تسلسل هرمي رسمي وعبر شبكات أخرى غير رسمية. وكما نلاحظ فإن حجم الاتصال هنا يصبح أكثر جماهيرية منه فرديّة. وهذا ما يجعل الحدث الاتصالي أكثر تعقداً وشمولية.

وفي الفصل التاسع، نواجه ما يُسمى بالاتصال الجماهيري أكبر الأنماط الاتصالية وأكثرها تعقيداً. ويُعرف عن هذا الاتصال فقدان المواجهة الفردية وبروز الوسائط الألكترونية التي تنقل رسالة فريق العمل في الوسيلة إلى جمهور متنافر ومتفاوت في التجاوب والمرجعية والوعي الجماعي. فالرسالة ليست فردية الصناعة وإنما جماعية، والوسيلة تتصف بالسمات الشمولة الانتشارية. والجمهور غير محدود زمانياً أو مكانياً. وهذا في مجمله يعني نمطا اتصاليا ذا طبيعة مؤسساتية اجتماعية، لها الكثير من الحضور والفاعلية مالايمكن لعقل تصوّره.

إن معظم ما يحدث اليوم في عالم الاتصالات من ثورات متلاحقة ليس إلا محاولة لردم القصور الآدمي في الحواس، وتوسيع لنطاق مدركاتها بدرجة غير منخَيلة. فالثورة الصناعية وما أعقبها من تحوّلات في أنظمة وأساليب وأدوات التفاعل البشري، لعبت دوراً في زيادة فاعلية العملية الاتصالية خارج حدود الزمان والمكان والتعددية الثقافية.

أما الفصل العاشر، فيسعى للتوسع في مناقشة أبعاد العملية الاتصالية في نصاقها الجماهيري والذي سبق التقديم له في الفصل التاسع. ويلاحظ القارئ هنا شيئاً من التفسير المتأنّي لحضور وسائل الاتصال في مجتمعات اليوم وبالأخص ما يُعرف هنا بالوسائل الألكترونية ومن قبلها الصحافة المطبوعة ومن بعد اجتماعي بالدرجة الأولى.

ويتناول الفصل الحادي عشر، ما يعرف بالاتصال بين الثقافات على مستوى الأفراد والجماعات فالفكرة الرئيسية هنا تقول: إننا كأفراد لسنا إلا مجرد مرايا منحركة لواقعنا الثقافي والاجتماعي. فالقيم والأعراف والنظم الاجتماعية تؤثر بدرجة بالغة في التفاهم بين أفراد الثقافات المختلفة. ولضرورات العصر التي تملي تفاهم الشعوب والتقاء مصالحها من وقت لآخر، فإن هذا الجانب الاتصالي على درجة بالغة من الأهمية وبالأخص في عصر تزايدت فيه مساحة الاتصال وتأثيراتها بين الشعوب.

ويظل هذا العمل المتواضع مجرد محاولة للملمة شتات معرفي يصعب إجماله أو تناوله في أطروحة واحدة بعينها، خاصة وأن علم الاتصال ومنذ منتصف هذا القرن الحالي وهو يحظى باهتمام منقطع النظير في أوساط الباحثين والمراكز العلمية

الكبرى في الغرب. ولعل ما يشفع لحضور هذا العمل، أنه ليس إلا محاولة لتقديم خطوط أولية لعالم عنكبوتي كوني بمفاهيم ومصطلحات شبكات وأقنية المعلومانية اليوم.

د. عبد الله الطويرقي

أغسطس ١٩٩٦ .

تقديم الطبعة الثانية

في الواقع، لم أكن أتصوّر بأنني سأقدِّم مرة أخرى لكتاب سبق وأن قدّمت له في وقت من الأوقات. ولكنني حقيقة وجدت نفسي ملزماً ـ بعد نفاذ الطبعة الأولى ـ ليس بالتقديم للطبعة الثانية فقط وإنما محاولة قراءة واقعنا الاجتماعي من خلال رصد وسائل الإعلام فيه. علماً بأن محاولة كهذه قد لا تضيف جديداً في تراكمنا المعرفي ، وإنما قد تأتي من خلالها فتق لرؤية كنا في أغلب الأحيان نتعامل معها بسطحية أو كمُسلمة لا تحتمل المُساءلة. وإنني لا أزعم فقط بأن حركة التحديث والعصرنة والمثاقفة مع الآخر من خلال البرامج التنموية الهائلة لم تكن في حقيقتها إلا نتاجا لحضور وسائل الاتصال فيما بيننا،وإنما أؤكد على أنه لولا وسائل الاتصال والمراسلات الحديثة هذه لما قُدّرهنا أساساً كمجتمع عصري أن نجسّد فكرة التنمية من أساسها.

ولست في حاجة إلى القول بأن عصرنة وتحديث المجتمع تحتاج إلى الكثير من الأدوات التي تُعين على إحداث التغيير اللازم في بُنى الحياة الاجتماعية. ويأتي في مقدمة هذه الأدوات وسائل الإعلام بكل أشكالها. والقضية هنا ليست قضية مضامين إعلامية بقدر ماهي آليات وأدوات تحمل في ثناياها طقوساً من نمط خاص تَحضَر للإنسان معها صورة مجتمعية لم يعهدها من قبل. إن مجرد الحديث عن صورة مجتمع الوسائل تعني بالدرجة الأولى محاورة الخبرات الحسية العديدة لدى الأفراد والفكر الجماعي المتوالد من بيئةالوسائل هذه، فهذا الحوار في أصله ليس إلا مجرد استنطاق لنية تفكير الفرد وحركية المؤسسات الاجتماعية في الواقع، ومحاولة للتعرُّف على أشكال الفعل الاجتماعي الكامنة والظاهرة في هذا المجتمع.

إن هذه الطبعة تفرُق عن سابقتها في أنها تتوسع في استجلاء حضور الوسيلة